الفصل الرابع

صدام مع الأب..... صدام مع الابن

عام ١٩٦٢م، أجرى بهلوي تعديلًا على قانون الانتخابات البلدية، وحذف منه شرط أن يكون المرشح والناخب مُسْلِمًا، وحذف شرط أداء القسم على القرآن ليصبح على أيِّ كتاب سماوي آخر، كما سمح للنساء بالترشح في استكمال لمسلسل الحرب على الإسلام التي بدأها الشاه عقب انقلابه على مصدق، وكانت بدايتها انتشار الأفلام الإباحية بدور العرض السينمائية في مدن البلاد، علاوة على كتب الجنس التي كانت تعرض وتباع دون أدنى رقابة للشباب الإيراني، كما ضمت حكومة الشاه عدة مسئولين في الدولة ووزراء منتمين للمذهب البهائي، مثل:

رئيس الوزراء السابق أمير عباس هوفيدا، وإيراج وحيدي وزير الطاقة، ورضا قطبي مدير الإذاعة والتليفزيون (وهو ابن خال الشهبانو فرح ديبا)، وعبد الله رياض رئيس مجلس النواب، وهرمز غريب مدير التشريفات بالقصر الامبراطوري، ومنوشهر تسليمي وزير التجارة، وشيخ الإسلام زادة وزير الصحة، ومنصور روحاني وزير الزراعة.

كما اتسم سلوك الشاه مع المؤسسة الدينية بالمُقْت كما أسلفنا، إضافةً إلى غروره وتعامله بفَوْقِيَّة مع الشعب خلال الاحتفال بمناسبة دينية، والتي كانت

تعقد في أحد مساجد طهران الكبرى حيث كان يرفض الجلوس على الأرض مثل بقية الحضور، فيؤتى له بمقعد ملكي وسط المسجد ليجلس عليه.

أثارت هذه التصرفات حفيظة أحد كبار المراجع الشيعية في قُمّ المعروف بعدائه السافر لنظام الشاه وهو آية الله الخميني.

ولد آية الله الخميني في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٠٢م وسُمِّيَ رُوحُ الله. والده هو مصطفي بن أحمد الهندي، الذي تعود أصوله لكشمير في الهند قبل تقسيمها، وأمه السيدة هاجر بنت آية الله الميرزا أحمد المجتهد، والتي أنجبت لأحمد الهندي ولدين قبل روح الله هما مصطفي ونور الدين باسنديدا، وسُمِّيَ بالخميني نسبة إلى خمين البلدة التي ولد فيها، والتي تبعد ثمانمائة كيلومتر عن طهران، وقبل أن يتم خمسة أشهر قُتِلَ أبوه في طهران، وحزنت أمه حزنًا شديدًا تسبب في مرضها ومنعها من إرضاع رضيعها؛ فأوكلت هذه المهمة لإحدى المرضعات، وعندما بلغ روح الله السادسة من عمره ذهب إلى الكُتَّاب، وبدأ يتلقى دروسًا في القرآن، وتلقى أيضًا علوم الحساب والرياضيات على يد العالم (اعتماد العلماء)، وارتدى عمامة العلماء وهو في سن العاشرة بسبب تفوقه الدراسي، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ودخلت القوات الروسية أراضي إيران واحتلتها، كان الناس يلجئون لبيت روح الله للاحتماء به؛ لوجود أبراج حصينة به، وحمل (روح الله) السلاح وهو في الرابعة عشرة من عمره، وشارك في القتال ضد الروس، وحفر الخنادق للدفاع عن قريته، وفي العام التالي ١٩١٧م توفيت والدة الخميني فتكفل أخوه باسنديدا بتربيته، وعندما أتم الخميني السابعة عشرة من عمره أتم التعليم في خمين، فقال له شقيقه

باسنديدا: "إن شئت أن تكمل تعليمك فأنا على استعداد لتأمين كل ما تحتاجه لاستمرار دراستك، تَابِع دراستك وعُدْ لنا عالمًا كبيرًا".

غادر الخميني إلى آراك، والتحق بالمدرسة الدينية بها، التي ما لبثت أن نُقِلَت إلى قُمّ؛ فانتقل (روح الله) إلى هناك، وقَطَنَ في السكن الداخلي للمدرسة الفيضية، حيث كان ينام على الدوشك (كلمة فارسية تعنى الملاءة أو البطانية التي تفرش على الأرض للنوم)، وهناك تتلمذ على يد المرجع القُمّيّ آية الله عبد الكريم الحائري اليزدي، وبدأ (روح الله) دراسته في حوزة قُمّ بتحصيل العلوم الفقهية على يد اليزدي ومحمد تقي الخونساري، ولم يكتفِ الخميني بتحصيل علوم الفقه؛ فدرس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق و العلوم العرفانية، ودرس الفلسفة والعرفان لسبع سنوات، وأثبت تفوقًا فيهما على يد كبار العلماء كأبي حسن القزويني، وشاه آبادي، غير أن أكثر ما لفت انتباه التلميذ الشاب هو ابتعاد المراجع الكبار عن الشئون السياسية واكتفائهم بتدريس المواد الدينية، وعَلِمَ الخميني لاحقًا أن ذلك راجع إلى الاضطهاد والتهميش والقَمْع من الحُكْم القاجاري وقتها، فقرر الخميني التَّمَرُّد على هذا التقليد المُتَّبَع.

كان (روح الله) يسافر بين الحين والآخر لطهران يحضر جلسات البرلمان الإيراني، ويحضر مناقشات النواب السياسية ومن بينهم النائب آية الله حسن المدرس، وتوطدت العلاقة بين الخميني والمدرس، وخطا الخميني خطوة أخرى في طريق التميز عندما أَلَّفَ كتابه الأول (شرح دعاء السحر) عام ١٩٢٨م، وذلك بعد أن تخصص في تدريس الفلسفة الإسلامية والمنطق، وتتالت مؤلفاته بعده:

كتاب (شرح حديث رأس الجالوت والحاشية على شرح الفوائد الرضوية وشرح حديث جنود العقل والجهل عام ١٩٢٩م)، وكتاب (مصباح الهداية إلى الخلافة

والولاية ١٩٣٠م)، و(الحاشية على شرح نصوص الحكم)، و(الحاشية على مصباح الأنس عام ١٩٣٦م)، وكتاب (شرح الأربعين حديثًا)، و(سر الصلاة عام ١٩٣٩م)، وكتاب (أداء الصلاة رسالة لقاء الله)، و(الحاشية على الأستار عام ١٩٤٢م). وككل إنسان، قرر الخميني تكوين أسرة تُعِينه على مشاق الحياة.

عندما أتم الخميني التاسعة والعشرين من عمره عَزَمَ على الزواج، ووقع اختياره على خديجة ابنة صديقه السعودي الشيعي المقيم في طهران، والذي تعرف عليه عن طريق أستاذه عبد الكريم الحائري، وقد وافق الثقيفي على زواج الخميني من ابنته ذات الخمسة عشر عامًا؛ لما وجد عليه الخميني من أخلاق حميدة، ووافقت خديجة عليه بعد أن رفضته في بادئ الأمر.

أنجب الخميني من خديجة ولدًا سَمَّاه عليًّا، وبنتين سماهما لطيفة وكريمة، ثم لم يلبث أن مات ثلاثتهم، ثم أنجبا ولدين هما مصطفى وأحمد، وثلاث بنات هن فريدة وصادقة وفاطمة، وبدأ صدام الخميني مع الأسرة البهلوية عام ١٩٣٥م.

ففي ذلك العام منع الشاه الأب رضا الشاه علماء الدين من ارتداء العمامة، وفرض الخدمة العسكرية على طلبة العلوم الدينية، كما حظر الحجاب على النساء والفتيات، وعَطَّلَ العمل بالتقويم الهجري، وألغى مراسم العزاء في عاشوراء وخطبة صلاة الجمعة، ومنع تدريس المسائل الدينية في الحَوْزَة، ووصلت الاستهانة بالدين إلى درجة دخول تاج الملوك زوجة رضا شاه إلى مقام السيدة المعصومة دون حجاب، وعندما طلب منها أحد المراجع ارتداء ملابس تليق بالمكان ضربه مرافقوها ضربًا مُبَرِّحًا، واعتاد الناس في هذه الحقبة الاعتداء على رجال الدين المرتدين للعمامة؛ حتى أضحى هذا السلوك والاستهانة أمرًا اعتياديًا.

ونال الخميني نصيبه من هذا الاضطهاد؛ فمنعته شرطة الشاه من تدريس مادة الأخلاق؛ بحجة أن السياسة تَرِد كثيرًا في دروسه، وقد رفض الخميني ادعاءات السلطة بوجوب ابتعاد رجال الدين عن السياسة قائلًا: "هل ابتعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن السياسة؟ ولو كان مجرد رسول من الله فقط لَسَلَّم القرآن للناس واختفي بعد ذلك، لَكِنَّ الله أمره بالجهاد في سبيله؛ فقام بتنظيم المجتمع، وكان بمثابة الحاكم للجماعة؛ فقاد الجيوش في المعارك، وأرسل السفراء، ووَقَّع المعاهدات. إنَّ القول بفصل الدين عن شئون الدولة هو ما يريده الإمبرياليون، يريدون إقناعنا بأن الدين مسألة لاهوت لا أكثر".

كان الإسلام عند الخميني هو الإسلام بمعناه الشامل وشِقِّه الثَّوري، وقال عن ذلك:

"الإسلام هو دين المجاهدين الذين يريدون الحق والعدل، دين الذين يطالبون بالحرية والاستقلال والذين لا يريدون أن يجعلوا للكافرين على المؤمنين سبيلًا".

كما طالب الخميني بتطهير المراكز الدينية من فقهاء ووعاظ السلاطين، فقال:

"هؤلاء ليسوا بفقهاء، وقسم منهم قد ألبستهم دوائر الأمن والاستخبارات العمائم؛ لكي يدعوا الله للسلطان، ويستنزلوا عليه بركاته ورحمته. هؤلاء يجب فضحهم؛ لأنهم أعداء الإسلام، يجب على المجتمع أن ينبذهم؛ ففي نبذهم واحتقارهم نصر للإسلام وقضية المسلمين".

وبقي الخميني على صلابته ضد رضا خان في أحاديثه وكتاباته، وظل الوضع مزريًا بعد تولي محمد رضا عرش الطاووس بعد نفي أبيه، وفي عام ١٩٤٤م أَلَّف

الخميني كتابًا أسماه (كشف الأسرار)، وهو أول كتبه السياسية، وقد طُبِعَ ووُزِّعَ في إيران بشكل سِرّيّ، وقد واصل فيه نقده لتعامل الشاه المسيء مع المراجع، وجاء في إحدى فقراته:

"المدرسة الفيضية التي كانت تضم مئات الطلاب يفرون جميعهم نهارًا إلى الحدائق والبساتين ويعودون مساءً، لماذا؟! لأنهم يخشون أن يقعوا فريسةً للشرطة والحرس؛ فيهينونهم ويعرضونهم للأذى والسجن، وحتى علماء طهران كانوا يأخذونهم إلى مراكز الشرطة ويهينونهم ثم يمزقون ملابسهم وعمائمهم حتى لا يستطيعوا الخروج من هناك".

وعند تولي محمد رضا تنبأ الخميني بسيره على درب الخنوع الذي سَلَكَه أبوه، وقال:

"اختار الأجانب رضا شاه وسلموه السلطة، وسلموه قدرة كبيرة حتى استضعف هذا الشعب كله وأقام حكمه الجبار وسلب الناس كل شيء، فكانوا يعتنون بشخص واحد ويفعلون ما يريدون، وبعده جاءوا بمحمد رضا ومجموعة من الأفراد حوله من الطبقات الثرية جدًّا".

كانت علاقة الخميني بتلاميذه مَضْرِبًا للأمثال، فكان يتابع أحوال الطلاب ويسأل عنهم باستمرار، ويعودهم إذا مرضوا، وكان يصل به الأمر في بعض الحالات لإرسال طبيب لغير القادر منهم، وإذا توفي أحد من عائلاتهم كان يذهب بنفسه ويعزيهم، ويقول لهم:

"إذا كان لديكم حاجة فأخبروني بها".

وعَمِلَ الخميني كذلك على مساعدات أسر المتضررين من الانقلاب على مصدق، ممن قُتِلُوا أو أُرْسِلُوا للمنفى أو اختفوا قَسْرًا، فأرسل رسائل لرؤساء الدول العربية والإسلامية يطلب مساعدتهم في هذا المجال، ولم يستجب له سوى عبد الناصر الذي أرسل له مائة وخمسين ألف دولار ألقى القبض على حاملها في مطار طهران.

أثار ما حدث حَنَقَ الشاه، ورأى أن يُحَجِّم الخميني قبل أن يستشرى خطره؛ فخطب بهلوي خطابًا خبيثًا سأل فيه مراجع الشيعة عن رأيهم في زعيم شيعي قَبِلَ أموالًا من غير الشيعة، وفي اليوم التالي رَدَّ الخميني في حَوْزَة قُمّ بقوله:

"أنا لست في حاجة إلى نقود، فالهبات التي تجيء من حوزتي تغطي كل احتياجاتها، والنقود التي أرسلها الرئيس جمال عبد الناصر لم تكن مرسلةً لي، وإنما كانت للجنة المساعدات لسد حاجة الأرامل والأيتام، هؤلاء الذين ترملوا وتيتموا من جَرَّاء حكم الشاه وحكم أبيه من قبله، وإنني أنتهز هذه الفرصة لأعلن نهاية التَّقِيَّة".

وقد ازدادت شعبيته نتيجة هذا السلوك النبيل، إضافةً إلى جُرْأَتِه في وجه السلطة الحاكمة، وكان الطلاب يحضرون محاضراته بأعداد غفيرة بلغت زهاءَ الألف طالب في المحاضرة الواحدة، وكان لا يكتفي بلعب دور الملقن للطلبة بينما هم يستمعون دون إبداء رأي، فيقول لهم: "هل نحن في مجلس عزاء؟ أثيروا الأسئلة واطرحوا الإشكاليات، إنَّ البحث الذي لا تطرح فيه الإشكاليات على الأستاذ ليس بمجلس بحث إنما مجلس عزاء".

وقد حرص الخميني على معرفة آخر المستجدات السياسية والاتصال مع ثوار زمانه، والاطلاع على ظروف ثورتهم وما يواجهها من عقبات جنبًا إلى جنب مع وظيفته في التدريس، فالتقى مع عبد الحسين شرف الدين قائد انتفاضة جبل لبنان ضد الاحتلال الفرنسي عندما قدم إلى إيران، كما التقى بالسيد محمد حسين كاشف الغطاء أحد قياديي ثورة العشرين في العراق، وانصبت جهود الخميني في تلك الفترة على تعزيز حضور رجال الدين في الشارع الإيراني في ظل قَمْع المؤسسة الدينية من قِبَل السلطة الحاكمة، واتهم السلطة صراحةً في كتابه (كشف الأسرار) أَنَّها مناهضة للإسلام، ودعا علماء الدين لِتَحَمُّل مسئولياتهم التي يفرضها عليهم الدين والمجتمع، وكان ذلك أول مواجهة صريحة بين الخميني والشاه، وكما كان الخميني في صراع مع السلطة كان في صراع مع الحوزة.

رفض العديد من علماء الحوزة نشاط الخميني السياسي المتزايد وتدريسه للفلسفة المتضمنة لنبذات سياسية، ورأوا فيه خروجًا عن الخط الحوزيّ في تدريس العلوم الدينية دون الخوض في الجدل السياسي، وبدأ الخميني يتعرض للعديد من المضايقات وصلت إلى ادعاء بعض المراجع بعدم أهليته للإقامة في المدرسة الفيضية، ودخل واحد منهم إلى غرفته مُلْقِيًا أمتعة الخميني خارجها.

وفي عام ١٩٤٧م فقدت الحوزة زعيمها عبد الكريم الحائري، وقد لعب الخميني دورًا بارزًا في اختيار خليفة الحائري؛ فسافر لمناقشة سبب سفر آية الله البروجردي خارج البلاد، واجتمع مع الآيات الثلاث العظمى في قُمّ لتأييد عودة البروجردي، وفي نهاية المطاف انتخبت الحوزة آية الله البروجردي زعيمًا

للحوزة، وخلال فترة البروجردي امتنع الخميني عن إبداء آراء سياسية واكتفى بما يكلفه زعيم الحوزة لعدة أسباب أهمها:

١- خوفًا من انقسام المدرسة الفيضية.

٢- غياب الانسجام بين البروجردي والخميني.

٣- القيود البروتوكولية على البروجردي، حيث توجب عليه بحكم منصبه القيام بزيارات للشاه.

٤- تَبَنّي أغلب طلاب الحوزة لموقف البروجردي، وبالتالي لم يكن ميزان القوة في صالح الخميني.

غير أن ما يحسب للبروجردي في هذه الفترة هو المكانة الرفيعة التي تمتعت بها الحوزة، حيث رفض أن يُهَان طلبة الحوزة، وكان مناهضًا للشاه رغم استخدام الأخير عصا الترغيب وجزرة الترهيب، وعين البروجردي الخميني مستشارًا له في الشئون السياسية وتنظيم الشئون الحوزية، وتركزت جهود الخميني في تلك الفترة على تطوير مناهج الحوزة الدراسية، واقترح إنشاء الهيئة العامة لشئون الحوزة؛ لإصلاح شئون الحوزة العلمية، ووافق البروجردي على اقتراحه.

ولم يمنعه منصبه الجديد من استئناف نشاطه الدراسي والتقاء تلاميذه في المدرسة الفيضية، هذا إلى جانب مشاركته في دروس آية الله البروجردي، وواصل الخميني إنتاجه الفكري، فأصدر عدة كتب عقب توليه منصب مستشار البروجردي وهي:

(أنوار الهداية في التعليق على الكناية عام ١٩٤٩م)، و(بدائع الدرر في قاعدة نفي الضرر عام ١٩٥٠م)، وكتب: (رسائل الاستصحاب)، و(رسائل في التعادل والترجيح)، و(رسالة الاجتهاد والتقليد)، و(مناهج الأصول في علم الوصول عام ١٩٥١م)، و(رسالة في الطلب والإدارة عام ١٩٥٢م)، و(رسالة في التَّقِيَّة عام ١٩٥٣م)، و(رسالة في قاعدة من ملك)، و(رسالة في تعيين الفجر في عام ١٩٥٤م).

في هذه الآونة، كان الشاه الشاب محمد رضا ملكًا دستوريًا أي لا يحكم بينما الحكم في يد البرلمان؛ فقرر التلاعب بنتيجة الانتخابات البرلمانية، وملأه بالنواب الموالين له؛ ليتسنى له تمرير قوانينه المشبوهة والقَمْعِيّة، كما تلاعب بالدستور وضرب بنصوصه عرض الحائط؛ الأمر الذي أثار غضب المدرسة الدينية في قُمّ، وعارضه الخميني بشدة، وانتشرت تحركات احتجاجية في عدد من المدن الإيرانية توجهت إلى قُمّ لتقدم الدعم لعلماء الحوزة، الأمر الذي أقلق الشاه؛ فقرر التخفيف من حدة المواجهة مع المرجعيات الدينية.

أرسل الشاه رئيس وزرائه للقاء مندوب مراجع الحوزة آية الله الخميني الذي انتدبه البروجردي وآية الله الكاشاني، وحاول رئيس الوزراء منوشهر إقبال خلال للقائه الخميني إقناعه أن تغيير الدستور وفق إرادة مجلس النواب ليس عملًا منافيًا للإسلام، فكان رد الخميني قاطعًا: "لن نسمح لكم بذلك".

فرد عليه رئيس الوزراء: "لماذا؟".

فأجابه الخميني: "لأنها ستكون البداية التي ستنطلقون منها غدًا لإلغاء قوانين الإسلام".

عاد منوشهر إقبال من قُمّ يجر أذيال الخيبة، وهنا قرر رضا بهلوي التراجع عن قراره حتى لا ينهي حكمه قبل أن يبدأ، وكانت أحزمة البؤس تحاصر الأحياء الجنوبية من طهران؛ فَحَرَّك ذلك أحد مراجع الحوزة الشبان وهو نواب صفوي ضد نظام الشاه، وحاول اغتيال الشاه لَكِنَّ المحاولة مُنِيَت بالفشل، وشن الأمن حملة اعتقالات طالت مقربين من حوزة قُمّ مثل آية الله كاشاني زعيم كتلة نواب طهران، الذي سُجِنَ بسجن قلعة فلك، لكن ذلك لم يردع بقية أعضاء الجماعة.

واصلت فدائيان إسلام عملياتها المسلحة فاغتال أحد أعضائها وهو حسين إمامي رئيس وزراء بهلوي عبد الحسين هجير؛ ففُرِضَت الأحكام العرفية، وفَرَّ الشاه إلى الولايات المتحدة، وظل بها ثمانية وأربعين يومًا في ضيافة الرئيس الأمريكي هاري ترومان، وعندما عاد لإيران، عَيَّن علي رازم آراه قائد جيشه والذي اغتالته فدائيان إسلام أيضًا، وعندما وصل مصدق للسلطة ووُطِّدَ حُكْمُه بفضل آية الله الكاشاني تَنَكَّر له مصدق، وقرر انتهاج النظام العلماني، ووصل الاستهزاء بمكانة علماء الدين في عهد مصدق لدرجة أن الناس ألبسوا الكلاب نظارات وكتبوا عليها آية الله، وهو مالم يجرؤ الناس على فعله حتى في عهد الشاه الأب.

لم يضطهد مصدق الكاشاني وحده، بل نال الاضطهاد حتى معارضة الشاه المسلحة فسجن مصدق نواب صفوي زعيم فدائيان إسلام عشرين شهرًا، وعندما تدخل الوسطاء لإطلاق سراح صفوي كان مصدق يقول لكل وسيط: "اذهب وأحضر منه تعهدًا بعدم التدخل في السياسة وأنا مستعد لإطلاق سراحه مباشرة".

وعندما طلب الكاشاني من مصدق مراعاة الشعائر الدينية للشعب، ومنع المشروبات الكحولية، فرد عليه مصدق بقوله: "إن قسمًا من مدخولنا في هذا الوقت الذي تعاني فيه مداخيل النفط من المشكلات يعتمد على المشروبات الكحولية فلن نقطع مصدر العائدات هذا".

غضب الخميني من سلوك مصدق الذي شعر فيه باستغلاله الدين وقت الحاجة والتحايل عليه عند قضائها، فخطب في تلاميذه وقال: "إن الأمر ليس معارضةً لشخص، ولو بقي مصدق فسيوجه صفعةً للإسلام، وهؤلاء سيتلقون صفعةً".

كان تنبؤ الخميني في محله، ولم يمض وقت طويل حتى انقلبت الولايات المتحدة وبريطانيا على مصدق، وسرعان ما حوكم نواب صفوي وأُعْدِمَ عام ١٩٥٦م، الأمر الذي حَزَّ في نفس الخميني الذي عَلَّقَ فشل تجربة صفوي على غياب ما أسماه الدفاع الشعبي (أي الحاضنة الشعبية المساندة والمساعدة لهذا الحراك الثوري) سلميًا كان أو عنيفًا، اعتقد الشاه أنه قضى على أي ثورة تطيح بحكمه إلى الأبد، إلا أن مرجعًا من مراجع الحوزة القُمّية كان يبذر بذور الثورة في نفوس تلاميذه.

بدأت شهرة الخميني في الذيوع بالرغم من أنه لم يكن المرجع الوحيد في قُمّ، لَكِنَّ جُرْأَتَه على طرح القضايا السياسية داخل الحوزة كانت السبب في هذه الشهرة؛ نظرًا لإحجام غالبية العلماء عن هذا الأمر خوفًا من بطش السلطة، فتجمع حوله أكثر من ألف ومائة طالب، وفي أحد دروسه تحدث الخميني عن حكم الشاه خاصةً، وعن الحكم الملكي عَامَّةً، فقال:

"إنَّ الحكم الملكي من الأساس هو مخالف للقانون وللقواعد العقلية ولحقوق الإنسان، ذلك أننا حتى لو افترضنا أن شعب ذلك الزمان كله قد صَوَّت لأحد ليكون مَلِكًا، فأولئك مُسَلَّطون على مصيرهم ولهم حق اختيار مصيرهم ورأيهم ملزم لهم، أما إذا كان شعب ذلك الزمان صَوَّتَ ليكون أبناء وأحفاد ذلك الملك ملوكًا علينا، فبأي حق يقوم شعب بتحديد مصير شعب سيكون بعد خمسين عامًا".

كان الشاه يخصص الجزء الأكبر من موازنة الدولة المتأتية من بيع النفط لتكديس السلاح لقَمْع شعبه بدلًا من الإنفاق على البِنَى الأساسية من تعليم وصحة وعمران، وترك الشعب يرزح تحت نير الجهل والمرض والفقر، وهاجم الخميني هذا التصرف الأخرق في إحدى خطبه، قائلًا: "إذا استمر الأمر على هذا المنوال لثلاثين عامًا فسينتهي النفط، ولن يبقى لبلدنا لا نفط ولا زراعة. إذا استمر هذا الرجل لثلاثين عامًا؛ فسيصبح شعبنا شعبًا مستعطيًا. الآن نصف الشعب مستعطٍ وسيصبح الشعب كله مستعطيًا ليس له أي ذخائر، إذا أمهلنا هذا الرجل فسيقضي على كرامتنا".

بدأت المعارضة الحوزية للحكم البهلوي تنظم صفوفها أكثر فأكثر خاصةً بين الطلاب، وهم العنصر الشاب والفاعل في مواجهة قبضة الأمن الحديدية، وأسس الطلبة الشبان من أمثال هاشمي رفسنجاني ومحمد بهشتي مجلة: (مكتب تشيع) التي حاولوا من خلالها مجابهة الفكر التغريبي للشاه، عن طريق ترسيخ تعاليم الإسلام في نفوس الناس عبر مقالات المجلة التي تطرح الإسلام بأبعاده المختلفة عقديًا وسياسيًا واجتماعيًا.

كان للمجلة مكتب في قُمّ به سجل يحتوى أسماء الأشخاص والمندوبين المرتبطين ماليًا بالمجلة بعيدًا عن أعين الأمن والسافاك حتى لا يُطَارَد القائمون عليها، واستطاع شباب الحوزة إيجاد علاقات في الداخل الإيراني سواءً مع رجال الدين أمثال آية الله طالقاني وآية الله مطهري الذي كان له دور بارز في تعضيد جبهة المعارضة، أو مع الساسة المعارضين أمثال المهندس مهدي بازركان.

كما توسعت علاقات الحوزة بمعارضي الشاه من خارج الوسطين الديني والسياسي عَبْر هذه المجلة، ومع مرور الوقت تزايدت أعداد مندوبي المجلة حتى وصلت إلى أغلب المدن والمقاطعات الإيرانية حتى النائية منها، يرسلون الاشتراكات وثمن الأعداد للمكتب الرئيس في قُمّ. وفي العاصمة طهران أوكلت إدارة مكتب المجلة للعالم الشاب هاشمي رفسنجاني لمدة طويلة، وبعد رَدَحٍ من الوقت ظهرت مجلة: (مكتب إسلام)؛ لتشاطر(مكتب تشيع) المسئولية، وتكون خنجرًا جديدًا في ظهر الشاه.

الحادي والثلاثون من يناير عام١٩٦١م، توفي زعيم الحوزة آية الله البروجردي، ورأى الشاه في وفاته إضعافًا لقدرة الحوزة على الوقوف في وجه طغيانه، وإزالةً لما رآه آخر العقبات في طريق ملكه العضوض؛ فقرر الشاه زيارة مقام السيدة المعصومة للمرة الثانية، وخطب خطبة عصماء، وكان مما قاله فيها:

"إلى هذا الوقت كان هناك مقام صغير غير مسئول يقف سدًا في طريقي، ولم أستطع معه أن أحقق نوايا والدي في هذا البلد، ومن اليوم فصاعدًا فهذا المقام غير موجود، ومن الآن فصاعدًا ستُنَفَّذ نوايا والدي في هذا البلد، ليس هناك من أحد يستطيع أن يمنعني أو يقف في وجهي".

وبإرساله برقية للسيد محسن الحكيم مرجع النجف الأشرف ليتولى زعامة الحوزة خلفًا للبروجردي كان بذلك يهمش مراجع الحوزة القُمّية الموجودين وقتها :

الخميني، مرعشي نجفي، كلبايكاني، شريعتمداري، وحتى الولايات المتحدة أدلت بِدَلْوِهَا، واستدعت إلى قنصليتها في طهران المرجع الأصفهاني عبد الهادي كوهبابي مرجع البازار بأصفهان، وهو من المراجع المؤثرين -بحكم منصبه- في اختيار مرجع الحوزة القُمّية، وحاولت إغوائه بتولي المرجعية خلفًا للبروجردي، لكن كوهبابي رفض أن يكون دُمْيَةً تحركها الأيدي الأمريكية والبهلوية، ووقف آيات الله يدًا واحدةً، وأفشلوا مخطط الشاه والعم سام بتعيين مرجع الشيعة الديني بدلًا من انتخابه، وفي العام التالي تجدد الصدام بين الطرفين.

عندما أعلن الشاه تعديل قانونه الانتخابي الذي ذكرناه بداية هذا الفصل، ثارت ثائرة مراجع قُمّ، واجتمعوا في بيت زعيم الحوزة السابق آية الله عبد الكريم الحائري بناءً على دعوة من الخميني، وعارضت الحوزة البند الأول من قانون الشاه، إذ رأت فيه مدخلًا للبهائيين لمؤسسات الدولة؛ فأصدروا بيانًا وجهوه للشاه صاغه الخميني وكتبه بقلمه، جاء فيه:

"هل كان العلماء ورجال العلم يومًا ما يخافون التَّحَضُّر والتقدم العلمي؟ هل أردتم بناء المدارس والمعاهد وخالفكم العلماء؟ هل أردتم استيراد معمل مفيد وعارضوكم؟ هل اعتزمتم اختراع مركبة فضائية والتحليق بها في الفضاء ومنعكم العلماء من ذلك؟

نحن نطالب بعدم جَرَّ النساء إلى ساحات الفساد والفاحشة؛ صيانةً لهن من الانحراف. إنَّ العشرين سنة الماضية انقضت في السفور وخلع الحجاب، بماذا عادت علينا وعلى رجالنا وبلادنا؟

انصرفوا عن هذه الألاعيب ودَعُونا منها، وارفعوا أيديكم عن القرآن والدين الإلهي ولا تعتدوا على دستور البلاد باسم الرقي والتحضر والتمدن الكاذب".

لم يتأخر الشاه في الرد، فخاطب مراجع قُمّ بحجة الإسلام متجاهلًا آيات الله الموجودين، وأنهى خطابه بدعواته لعلماء الحوزة بالتوفيق في تبليغ الناس رسالة دينهم، في رسالة ضمنية مَفَادُها انحصار دور الحوزة في شئون الدين ولتترك السياسة وشأنها، وكان رد الخميني حاضرًا.

أرسل الخميني بعد التشاور مع تلاميذه الشبان عريضةً إلى الشاه من ثلاث نقاط، هي:
١- تحطيم سلاسل العبودية مع أمريكا وعدم التضحية بمصالح الأمة لحماية مصالح أمريكا والصهيونية.

٢- احترام الشاه للمسلمين وحرياتهم وألا يفرض حكمه بالرصاص.

٣- استخدام ثروة إيران لمكافحة الفقر والجهل.

كما أرسل رسالة حادة للشاه ورد فيها:
"بما أنك دعوتنا لهداية العامة، فإني أخاطبك -أيها العامي- أنت وحكومتك: الظاهر أنكم عزمتم على عدم الاهتمام والالتزام بنصائح وإرشادات رجال العلم والعلماء الأفاضل الذين هم عماد الأمة وملاذ الجماهير، وتظنون أنكم

تستطيعون الوقوف أمام القرآن والدستور ومشاعر الجماهير المسلمة. إنني أحذركم من تَبِعَات التهاون بتعاليم القرآن وإهانتها، وإلا فعلماء الإسلام والمراجع سوف يتخذون الإجراءات اللازمة".

كان هذا هو الرد الكتابي على رسالة الشاه المهينة، وكان الرد العملي أكثر قسوة ومزلزلًا لهيبة الشاه.

قرر الخميني استعمال (مكتب تشيع) لفتح جبهة المعارضة العنيفة على الشاه، وساعده رفسنجاني بالرجوع إلى دفتره الخاص الذي يضم أسماء وعناوين مندوبي المجلة الذين كان معظمهم من الشباب المتدينين والساسة المتفتحين،واتصل الخميني بعلماء المدن ومراكز المحافظات، وأوجد تجمعًا من الفقهاء كان تلميذه هاشمي رفسنجاني أحد أعضائه، وكلف أشخاصًا بالسفر إلى عدة مناطق في إيران، فسافر جواد علم الهدى إلى مشهد، وسافر آخرون إلى أصفهان وشيراز، وسافر رفسنجاني من قُمّ إلى يزد إلى رفسنجان فكرمان، وفي يزد سَلَّم رفسنجاني رسالةً للسيد صدوقي، وخطب في مسجد حظيرة، أما في رفسنجان فقد شرح رفسنجاني لرواد مسجد قطب آباد حقيقة ما يهدف إليه النظام الحاكم، وعند وصوله كرمان وعَقِبَ لقائه السيد صالحي، تلقى صالحي برقية من السيد النجفي المرجع القُمّي يخبره فيها أن النظام قد وافق على مطالب العلماء وانتهت المشكلة.

هاتف رفسنجاني قُمّ وعلم بغضب الإمام الخميني مما حدث معتبرًا أن النظام يريد وضع قبعة على رأس العلماء -أي يخدعهم- كما يريد دق أسافين الفرقة بين العلماء، واجتمع العلماء مُجَدَّدًا، وقرروا الاستمرار في نضالهم، وكان

الخميني بيضة القبان في هذا التحرك الرافض للخنوع لمخططات الشاه وخدعه.

طبع الخميني آلاف النسخ من رسالة الشاه وأمر تلاميذه بتوزيعها على الناس ثم تنظيم المظاهرات لاحقًا، وخلال ساعات امتلأت شوارع المدن الإيرانية بعشرات الآلاف من المتظاهرين، ظلوا يتظاهرون لستة أشهر متواصلة لم تذق خلالها البلاد طعم الهدوء، ولم يجد الشاه مَنَاصًا من التراجع عن قانونه المشبوه، فأرسل رسائل إلى المراجع، تراجع فيها عن تعديل القانون. وتمادى الخميني في تحديه للشاه، وطالبه بنشر ذلك التراجع رسميًا؛ فأمر بهلوي بنشره في الصحف الرسمية، وجنى الخميني عدة فوائد من تصديه هذا لقرارات الشاه:

١- أظهر قوة رجال الدين وتأثيرهم في الشارع وهو ما كان يخشاه الشاه.

٢- اتضاح ضعف الأجهزة الأمنية رغم قوتها الظاهرة.

٣- احتلال آية الله الخميني مكانة بارزة على صعيد رجال الدين أو على الصعيد المجتمعي؛ فأصبح اسمه دائم التردد كلما اشتعلت أزمة سياسية في البلاد؛ ما أكسبه شهرة واسعة.

لَكِنَّ تراجع الشاه أمام تصعيد العلماء لم يكتب نهاية لمآزق الشاه، سواء مع الشعب أو الحوزة.

عانى الاقتصاد الإيرانيّ كثيرًا في ظل حكم الشاه، وتعرض للنكسة تلو الأخرى؛ بسبب تركيز الشاه على الإنفاق العسكري وإهمال تطوير للبنى التحتية وتلبية احتياجات المواطنين، وخلال خمس سنوات فشلت ثلاث حكومات

متتالية في دفع الاقتصاد خطوة للأمام، وانتشرت أحزمة البؤس حول طهران، وبلغت نسبة الأمية خمسة إلى واحد بين الرجال واثني عشر إلى واحد في السيدات، وقد انتقد الخميني أداء الشاه في هذه الناحية في إحدى خطبه قائلًا:

"إنَّ عليَّ أن أقول إنَّ محمد رضا بهلوي -ذلك الخائن الخبيث- قد أتلف كل ما نملك، لقد دَمَّر بلدنا وعَمَّر مقابرنا.

لقد دَمَّر بلدنا اقتصاديًا، اقتصادنا الآن مُدَمَّر ومُتَلاشٍ، وإذا أردنا أن نعيده إلى وضعه، فإن ذلك يستدعي جهود الناس لسنوات طويلة، ولا يمكن لحكومة أن تقوم بذلك وحدها".

خشي الأمريكيون من فقدان إيران كرقم صعب في استراتيجيتهم الشرق أوسطية عبر ثورة عارمة تطيح بالشاه إلى غير رجعة، وعقب عودته من زيارة الولايات المتحدة أطلق الشاه ما أسماه الثورة البيضاء أو ثورة الشاه والشعب، والتي اشتملت على إجراءات عاجلة هي:

١- قانون الإصلاح الزراعي.

٢- تعديل قانون الانتخاب.

٣- تشكيل كتاتيب لمحو الأمية.

٤- بيع نسبة من أسهم الشركات للشعب.

٥- تأميم الغابات.

٦- حصول العمال على نسبة من أرباح المصانع والشركات.

٧- إنشاء دور للعدل سُمِّيَت ببيوت الإنصاف؛ للفصل في الخلافات والقضايا الخاصة بالفلاحين وسكان الريف.

رَوَّجَ الشاه إعلاميًا لثورته المزعومة، والتُقِطَت له صور وهو يقود مِحْرَاثًا زراعيًا، وصور أخرى وهو يوزع عقود الأراضي الزراعية على الفلاحين، ولم ينس الشاه نصيبه من هذه الحملة، فَوَزَّع جزءًا من الأراضي التي استولى عليها أبوه والتي بلغت نسبتها سبعين في المائة من أراضي الدولة، في الوقت الذي كان فيه ستون في المائة من الفلاحين لا يملكون أية قطعة من الأرض الزراعية، كما شكل كتائب الصحة؛ لنشر الوعي الصحي في كافة أرجاء البلاد، وكذلك كتائب التعمير؛ لتطوير ودفع الحركة العمرانية خاصةً في الريف، وأعاد بناء كل المباني الحكومية ومباني الدولة لتتماشى مع روح العصر، وأعاد تنظيم الإدارة والتعليم بما يحققان الاستجابة لمتطلبات البلاد، وبنى أربعة عشر سدًا، ورَصَفَ عشرين ألف ميل من الطُرُق، وباع المصانع الحكومية للتعاونيات، وبعد كل هذه الإجراءات قرر الشاه تقديم كشف حساب عن منجزات ثورته للشعب.

ادَّعى الشاه أنه بهذه الثورة قد قضى على الإقطاع بكل مساوئه وجعل الفلاح للمرة الأولى في تاريخه مالكًا للأرض، ومَلَّك العمال أربعين في المائة من أسهم المصانع والشركات التي يعملون فيها، وأصبح خمسة وستون في المائة من الإيرانيين يملكون مساكنهم، وأصبح متوسط دخل الفرد ألفين ومائتي دولار سنويًا، وانخفضت نسبة الأمية بين الإيرانيين من خمسة وثمانين في المائة إلى خمسة وخمسين في المائة، وتخطى عدد تلاميذ المدارس الابتدائية المليون تلميذ، كما انخفضت نسبة البترول من الدخل القومي إلى خمسة وثلاثين في المائة

فقط، وأضحت إيران تصنع خمسةً وستين في المائة من مكونات مصنوعاتها؛ نتيجة التوسع الصناعي، لكن لكل شيء مميزات وعيوب.

كانت الثورة البيضاء نوعًا جديدًا من الرأسمالية الإجبارية التي طَبَّقَتها الدولة، وبالأخص في القرى، حيث أخذ توزيع الأراضي شكلًا مُجْحِفًا في ظل هيمنة الدولة الهادفة لفرض حل سياسي لمشكلة الريف؛ تجنبًا لتهديد ثوري حقيقي يمكن أن يَعْصِفَ بالنظام من جانب فلاحين استبد بهم الاستياء، وفي الوقت الذي حاول فيه محمد رضا القضاء على الإقطاع فإنه قد حرم المزارعين من المساندات المالية التي كان يتلقونها من الإقطاعيين، إما بشكل مباشر، وإما عن طريق شبكات التسويق التي يسيطر عليها الإقطاعيون، ولم يوفر لهم بهلوي مساندةً ماليَّةً بديلةً، ولم ينجح في توفير احتياجاتهم من الأسمدة أو خلق نظام بديل للتسويق، وكان ذلك السبب الرئيس في نزوح الفلاحين بأعداد هائلة إلى المدن، حيث عملت نسبة ضئيلة منهم في المصانع، بينما ظل الباقون عاطلين عن العمل.

هاجم الخميني ثورة الشاه وخطب في تلاميذه قائلًا:

"لاحظوا أنهم تحت شعار إصلاح الزراعة وتأهيل الفلاحين وتحت شعار إنقاذ الفلاح من العبودية وجعله مزارعًا أعدوا الإصلاحات الزراعية، وبعد هذه المدة الطويلة انتهت إصلاحاتكم تلك بالقضاء على المزارعين نهائيًا، وبالقضاء على زراعتنا كُلِّيًا، وأنتم الآن محتاجون للخارج في كل المجالات، أي أن محمد رضا قام بذلك ليعد سوقًا لأمريكا، ولنكون محتاجين لها لنشتري القَمْح والأرز وكل شيء، أو نشترى البيض منها أو من إسرائيل صنيعة أمريكا، لذلك كل الأعمال

التي قام بها محمد رضا تحت اسم الإصلاح كانت إفسادًا؛ فالإصلاحات الزراعية وَجَّهت لبلدنا صفعةً لعلنا لن نستطيع التعويض عنها حتى بعد عشرين عامًا".

ولم يكتف الخميني بانتقاداته اللاذعة للشاه، بل زاد عليها واعتبر ما فعله الشاه انتهاكًا للدستور، حيث إنه لا يحق له دستوريًا اتخاذ إجراءات كهذه، وأصدرت الحوزة القُمّية فتوى اعتبرت فيها تصرفات الشاه معادية للإسلام مخالفة للدستور؛ فأشعلت الفتوى موجةً عارمةً من المظاهرات، أضربت خلالها الأسواق والمحال التجارية؛ فقرر إبداء شيء من المرونة.

دعا بهلوي الإيرانيين للاستفتاء على بنود الثورة البيضاء، وأعلن عن عزمه زيارة قُمّ المقدسة ليلتقي علماءها، وكان الخميني على أُهْبَة الاستعداد لزيارة وريث عرش الطاووس؛ فأصدر فتوى بتحريم استقبال الشاه في قُمّ؛ فأغلقت المحال التجارية أبوابها، واشترط العلماء للقاء بهلوي إعلان توبته وتصحيح أخطائه السابقة؛ ففشلت زيارة الشاه، الأمر الذي أفقد الشاه صوابه، فنعت المراجع تارةً بأصحاب العقول الجامدة والظلامية، وتارةً بالحيوانات النجسة، لَكِنَّ الخميني تَرَفَّع عن مبادلة بهلوي سِبَابًا بسباب، وتَحَيَّن اللحظة المناسبة لإيقاف تصرفات الشاه الاستبدادية والاستفزازية، وظلت الحرب دائرة بين الرجلين.

واصل الشاه تصرفاته المغضوب عليها من الخميني، وذلك عشية انتشار أخبار مفادها نيته افتتاح سفارة لإسرائيل في طهران مطلع عام ١٩٦٣م، الأمر الذي رد عليه الخميني بحزم ورفض، ووجه له رسالة قال فيها:

"عليك أن تمتثل لأوامر الإسلام وتصغي لما يقوله أهل العلم والعلماء، هؤلاء يريدون صلاح الوطن، أَعْرِض عن إسرائيل؛ فإنها لن تنفعك عند قيام الساعة. أيها التعيس، أيها الذليل، لقد انقضى من عمرك أربعة وأربعون عامًا، تَأَمَّل قليلًا، لاحظ عواقب الأمور، اعتبر من كل ما مضى، اعتبر بأبيك، لا تُصْغِ إلى ما يلقنونك إياه من أكاذيب ودجل.

لم كل هذا الهُرَاء؟ ماهي الرجعية السوداء: الإسلام والعلماء؟ أم أنت يا صاحب الثورة البيضاء؟ ماهي هذه الثورة؟ عرفت جذورها، اكشف النقاب عن أساسها، إلى متى تطمع بالسلطة؟ وإلى متى تريد تضليل الشعب؟".

لكن الشاه ألقى بذلك وراء ظهره، وحاول اكتساب شرعية زائفة، وذلك في السادس والعشرين من يناير ١٩٦٣م، عندما وافق المستفتون من الإيرانيين على إجراءات الثورة البيضاء، وقد سُرَّ الشاه بذلك، ووَجَّه خِطَابًا للشعب قال فيه:

"هدفي النهائي هو الوصول بإيران خلال عشرين عامًا إلى مستوى الحضارة والتقدم الذي بلغته معظم الدول المتقدمة، وتم خلال العشر سنوات الماضية التخلص من نصف حالة التأخر في البلاد، لَكِنَّ النصف الثاني من تلك الفجوة هو الأصعب في سَدِّه".

وتحقق من ضمن ما تحقق من خطط الشاه إنشاء مَصْنَعَي: تبريز للجرارات، وورش آراك للسيارات.

وكانت مباني العمال اللازمة للإقامة ومدارس أبنائهم ودور الحضانة مجاورة لمقار العمل، وحَدَّث النظام المصرفي، لكن ذلك لم يكن أبدًا بديلًا عن الحرية التي نشدها الإيرانيون.

وقعت اضطرابات في عدد من المدن الإيرانية؛ احتجاجًا على اتهام الشاه الشيوعيين ورجال الدين -حِلْف الحُمْر والسُّود كما أطلق عليهم- بإثارة التمرد في البلاد لإيقاف عجلة الإصلاح التي دارت، وصارت وتيرة الاحتجاجات عنيفةً، خَاصَّةً في المدن المقدسة مثل قُمّ، حيث أعلن الخميني وقف الأنشطة الدينية ليس في المدينة المقدسة بل في إيران بأسرها.

اعتبر الشاه رفض الملالي لقانون الإصلاح الزراعي راجع إلى خوف آيات الله من حرمانهم من عائدات أملاكهم الزراعية الواسعة، ورأى أيضًا أن اعتراضهم على فرق محو الأمية يعزى إلى خوف أصحاب العمائم السوداء من إفلات عقول الطلاب الملتحقين بهذه الكتائب من سيطرة الحوزة التقليدية، وبينما الشاه مشغول بكيفية التَّصدي لهذه المعارضة الشرسة رُزِقَ بمولودة من فرح بهلوي في الثاني عشر من مارس ١٩٦٣م، أطلق عليها اسم فرح ناز، لَكِنَّ الخميني أبى إلا أن يزيد من متاعب المعارضة التي أَقَضَّت مضجع الشاه.

قرر الشاه مواجهة المعارضة الحوزية بأسلوبه القَمْعي المعتاد؛ فَرَدَّ الخميني بتعبئة رواد المساجد ضد الشاه طوال شهر رمضان، بعدما تعمد الشاه اعتقال المعارضين من المساجد دون أدنى مراعاة لحُرْمَتِها، وكان الخميني يهدف إلى تعطيل المساجد خلال رمضان، لَكِنَّه تَيَقَّن من رفض الجماهير لخطوة كهذه، فاستبدلها بالتعبئة وفضح ممارسات النظام، وعشية عيد النيروز "عيد الربيع" الموافق للحادي والعشرين من مارس ١٩٦٣م، أعلن الخميني الحداد العام في إيران، مُلْغِيًا بذلك الاحتفال بالعيد، الأمر الذي أكسب الخميني زَخَمًا كثيفًا داخل البلاد.

حاولت آلة الشاه الإعلامية تضليل الجماهير، فَادَّعَت أن الداعين لهذا الأمر لا يريدون للناس إلا البكاء، خَاصَّةً مع تزامن العيد مع ذكرى استشهاد الإمام جعفر الصادق ثامن أئمة الشيعة الاثني عشرية، ولما لم يُؤْتِ التَّضْليل أُكُلَه، قَرَّرَ الشاه الرَّدَّ بعنف تجاوز حدود المعتاد.

أصدر الشاه أمرين للرد على خطوة الخميني التصعيدية:
الأول: استدعاء طلبة العلوم الدينية للخدمة العسكرية الإلزامية في ثكنة باغ شاه.

الثاني: اقتحام المدرسة الفيضية.

اقتحم الأمن والسافاك وقوى من الجيش المدرسة الفيضية، وحُدِّدَت ثلاثة أماكن رئيسة للاستهداف، لكن لم يستهدف منها سوى ثالثها وهو:
١- منزل الخميني الواقع في زقاق بخجال قاضي الذي يصعب التحرك فيه؛ فقرروا توجيه تهديد للخميني بالتوقف عن أفعاله أو الاعتقال، إضافةً إلى القوة التي ستجابه بها أية قوات تحاول اعتقال الخميني من أنصاره، واكتفي جنود السافاك بدخول منزل الإمام وهم سكارى يحملون عصى مكهربة وسيوف، لَكِنَّ الخميني حذرهم من عواقب أية حماقات قد يرتكبونها.

٢- المدرسة الحجتية التي يتزعمها آية الله شريعتمداري، والتي كان يحرسها اثنان ممن يطلق عليهم بالعامية المصرية (الفُتُوّات) وكانا على علاقة جيدة بالأمن؛ لذا تغاضت القوات عن مهاجمتها، لكنهم هاجموا غرفة محمد رضا الكلبايكاني، وسَبُّوا الطلاب وضربوهم، وهتفوا في صوت عالٍ تأييدًا للشاه.

٣- المدرسة الفيضية، وهي التي كان الاقتحام من نصيبها.

في ذلك اليوم خطب العلامة الأنصاري في تلاميذه، ومع اندلاع المواجهات العنيفة في الحوزة وقعت اشتباكات عنيفة، وفَرَّ العديد من طلاب المدرسة الفيضية، وكان بعض تلاميذ الخميني قد غادروا منزله للتَّوِّ فعادوا إليه والقلق يساورهم على سلامته، بعدما رُوِيَ لهم من زملائهم الناجين من جحيم المواجهات، وعندما قَصَّوا على الخميني ما جرى، هَدَّأ من رَوْعِهِم، وشَجَّعَهُم، وذكر لهم الجانب الإيجابي لما وقع بقوله: "إن الموضوع جيد لإذكاء نار المقاومة".

خشي تلاميذ الخميني من إصابة إمامهم بسوء؛ فقضوا أغلب الليل قرب منزله، في الوقت الذي توافد فيه المصابون تترى على المشافي، وكان مشهد الحوزة القُمّية صباح اليوم التالي أشبه بساحة حرب:

بقع الدم في كل مكان، فوارغ الرصاص متناثرة في جنبات عدة، وعمائم محترقة وأحذية متناثرة في كل مكان، وفي اليوم التالي أعاد زبانية الشاه كَرَّة القَمْع والتدمير في الحوزة القُمّية.

تعقب المهاجمون الطلبة وهم يهددونهم ويتوعدونهم ويسبونهم بأقذع الألفاظ، ووصل الأمر إلى اقتحام الغرف على الطلبة، ووصل الأمر ببعض الطلبة إلى الهروب قفزًا من النوافذ هربًا من الاعتقال، حتى الجرحى أُجْبِرُوا على مغادرة المشافي الحكومية قبل اكتمال شفائهم؛ حتى لا تُسْتَغَلُّ زيارتُهُم للتنديد بقَمْع الشاه، وقرر الخميني ألا يضيع هذه الفرصة في حربه مع النظام البهلوي.

استفاد الخميني من جميع إمكانات الحوزة التبليغية خَاصَّةً الوُعَّاظ؛ ليفضح مظالم الحكم البهلوي، وقد نجح الخميني في أن يتجاوز الاحتجاج على أحداث الفيضية حدود إيران، وظهر ذلك في الرسالة التي أرسلها مرجع النجف آية الله

محسن الحكيم لمراجع قُمّ يستدعيهم فيها إلى النجف، ولكن لسوء الحظ وقعت الرسالة في يد النظام الذي حاول الحيلولة دون وقوع محتواها في أيدى الخميني وأنصاره عبر ذكرها في رسالة خاصة يرسلها إليهم، إلا أن الخميني رفض وقال: "فليُعْطِ هذه الرسالة إلى المقربين إليه".

التقى الشاه ببعض العلماء، وقال لهم في لهجة أقرب إلى التحذير: "إذا كنتم تريدون الذهاب، فإننا سنعطيكم جوازاتكم بسرعة، على أن تسافروا دون ضجة".

وفي نفس الوقت أرسل الشاه تحذيرًا إلى آية الله شريعتمداري قال فيه: "إننا هذه المرة لن نراعي شيئًا أو أحدًا".

أول أبريل ١٩٦٣م زار الشاه مقام الإمام الرضا في مشهد، وخطب في الحضور متناولًا التعاليم القرآنية، وانتقد تأويل بعض مراجع الحوزة لها، معتبرًا أنهم يفسرونها حسب مصالحهم وضد مبادئ المساواة والأخوة التي أقرها القرآن، مُضِيفًا:

"هؤلاء الأشخاص يعرقلون مسيرة التنمية في بلدنا، ولحسن الحظ فإن الشعب الإيراني يعرف تمامًا الرجعيين، وسوف نحددهم بالاسم إذا لزم الأمر".

عقب نهاية زيارته، قرر الشاه إظهار العين الحمراء لمناهضيه من علماء الحوزة؛ فَفَعَّل قانون تجنيد طلاب الحوزة الذي أصدره إبَّان أحداث المدرسة الفيضية، والذي وجد فيه علماء الحوزة انتقاصًا من مكانة الحوزة والمنتسبين إليها ،وقرر بهلوي المُضِيّ في تنفيذ قراره.

العاشر من أبريل ١٩٦٣م، طَبَّق الشاه قانونه باقتياد عدد من طلاب الحوزة منهم عدد من تلاميذ الخميني وفيهم هاشمي رفسنجاني، ومُزِّقَت بطاقاتهم التي تثبت أنهم طلاب، وأُجْبِرُوا على حَلْقِ لِحَاهم، وبدأت إجراءات إلحاقهم بالخدمة، مِنْ تَسَلُّم الملابس العسكرية، والتوزيع على قطاعات الجيش، والوقوف في طوابير الصباح، ثم التدرب على السلاح.

كانت الزيارات محدودة لهؤلاء الملتحقين بالجيش رغم أنوفهم، وكان بعض هؤلاء الطلبة يزور الخميني في الإجازات التي يحصلون عليها، ويخبرونه أنهم يشعرون أن تجنيدهم هذا ورقة ضغط يستخدمها الشاه لعرقلة كفاح الخميني ضده، لَكِنَّ الخميني طَمْأَنَهُم أنه ماضٍ في مُعَارَضَتِه للنهاية، وكان يرسل لهم وجبة كباب في معسكراتهم بين الحين والآخر، وبعد فترة اجتمع الخميني مع علماء ومراجع الحوزة في بيته، واتفق في هذا الاجتماع على توجيه خطابٍ قاسٍ لبهلوي في ذكرى عاشوراء، لكن آية الله شريعتمداري انسحب من هذا الاتفاق.

جاءت لهجة الخميني حادةً وأكثر سُخْطًا من ذي قبل، فجاء في خطبته العاشورائية:

"نحن نعيش عصر عاشوراء (في إشارة لتشابه جرائم الشاه مع جرائم يزيد بن معاوية)، إنني أحذرك أيها الملك من مَغَبَّة تلك الأعمال والأساليب، وأريد أن يشكر الناس ربهم إذا قرر أسيادك في الغرب إبعادك عن البلاد". عقب خطابه القاسي والمتوقع ضد الشاه في ذكرى عاشوراء والموافق للخامس عشر من خرداد، هاجمت وحدات خاصة من الجيش الإيراني ترتدى الزيَّ المدني منزل الخميني وألقت القبض عليه بعد منتصف ليل الرابع من يونيو ١٩٦٣م، وكان

خبر اعتقاله الشرارة التي أحرقت إيران، وعُرِفَ ذلك باسم أحداث الخامس عشر من خرداد.

وضح جَلِيًّا تأثير عدد من التيارات في هذه الأحداث بخلاف الخميني وهي:

المراجع، ثم شبكة المساجد، والحسينيات، ثم الهيئات والتنظيمات الدينية، ثم الائتلافات السياسية، وكان التأثير الأخف من نصيب النخبة المثقفة وطلاب الجامعة والجبهة الوطنية.

استطاع رفسنجاني وعدد من تلامذة الإمام النجباء تشكيل مجلس إداري من أحد عشر عالمًا هم:

آية الله منتظري، مشكيني، محمد خامنه آي، رباني، شيرازي، مصباح يزدي، آذري، حائري طهراني، قدوسي، أميني إضافة إلى رفسنجاني، تَبَنَّى قضية إطلاق سراح الخميني والإفراج عنه نهائيًا، كما أصدر تلاميذه نَشْرَتَي الانتقام والبَعْث السِرِّيَّتَين؛ لبث الحماس في الجماهير المُؤَيِّدَة لفكر الخميني، وقد آتت هاتان المحاولتان أُكُلَهُمَا.

أضحت شوارع المدن الإيرانية تَعِجُّ بالناقِمين على الشاه وزُمْرَتِه خَاصَّةً في قُمّ وطهران -حيث سُجِنَ الخميني في سجن عشرة آباد- ومشهد وشيراز حيث أشعل المحتجون الغاضبون النار في مكتبة عامة وأكشاك لبيع الصحف، وأُغْلِق البازار (السوق الكبير) في طهران، وردد المحتجون شعاراتٍ معاديةً للشاه؛ فشعر رئيس الوزراء (أسد الله عَلَم) بإمكانية انفلات الأوضاع؛ فطلب من الشاه منحه سلطة مؤقتة على الجيش.

جمع (عَلَم) ضباط الجيش وحذرهم من سقوط طهران، وأمرهم بإطلاق النار على أقدام المتظاهرين لإيقاف المظاهرات، وعندما وصلت المظاهرات بالقرب من مقر السفارات الغربية بالعاصمة، صدرت الأوامر بقتل الجندي الذي لا يطلق النار على رءوس المتظاهرين، ونزلت الطائرات إلى ساحة المواجهة، وسقط القتلى بالآلاف؛ فأمر الشاه بجمع هذه الجثث وإلقائها في بحيرة الملح ذات النسبة العالية من الملوحة بالقرب من قُمّ، حيث ذابت هذه الجثث؛ ليخفي الشاه بذلك واحدة من أبشع جرائمه، وقرر بعدها الانتقام بأريحية من الخميني.

في سجن عشرة آباد حاول المحققون التحقيق مع الخميني الذي رفض وقال لهم: "اجمعوا أوراقكم واخرجوا من هنا".

في المرة الثانية، حضرت لجنة من القضاء العسكري، وأخبره أعضاؤها أنهم بصدد تجهيز ملف لمحاكمته، فَرَدَّ عليهم: "بما أن القضاء غير مستقل، فأنا غير مضطر للإجابة عن أسئلتكم".

فقالوا له: "اكتب ما قلته على الورق فكتبه، وكان الشاه عازمًا على إعدام الخميني عقب اعتقاله، لَكِنَّ العلماء اجتمعوا مُصْدِرِين بيانًا اعتبروا فيه الخميني مرجع تقليد، وبالتالي تُحْظَر محاكمته فضلًا عن إعدامه، وصمد الخميني في وجه سجانه؛ حتى اضطر الشاه للإفراج عنه في السابع من أبريل ١٩٦٤م، ووُضِعَ قيد الإقامة الجبرية في الداوودية شمال طهران في منزل شقيق آية الله قمي، وكان الوضع في طهران وعموم إيران في الفترة ما بين أحداث الخامس عشر من خرداد حتى انتقال الخميني للإقامة الجبرية شديد التشنج والاضطراب؛ فقد كان هناك الكثير من العلماء في السجون، ووقعت العديد من

حالات الاعتقال المتكررة، ثم الإفراج عمن اعْتُقِلُوا فيها، وحضر العديد من العلماء إلى طهران من أرياف المدن الإيرانية، وكانت منازلهم مراكز لِلِّقاءات والاجتماعات المناهضة للسلطة، وسَرَت الكثير من الإشاعات عن أحوال سجون الشاه، وعن شخص الخميني، إضافةً إلى تَفَشِّي شعور عام بالخوف والترقب، وهو ما نقلته الأجهزة الأمنية والسافاك للشاه؛ فأخرجه من السجن ووضعه قيد الإقامة الجبرية، قبل أن يضطر تحت ضغط إضراب كبار تجار البازار لإطلاق سراحه نهائيًا.

خلال إقامته الجبرية في الداوودية أضحى منزل آل قمي قبلةً لوفود الطلبة من تلاميذ الخميني، الذين ضاق عليهم المنزل؛ لكثرتهم، وبعد أن أطفأ الخميني نار الشوق لتلاميذه، قرر التوجه إلى بيته الأول: المدرسة الفيضية.

توجه الخميني إلى قُمّ، وخطب في المسجد الأعظم؛ ليرد على تيار شريعتمدارى الذي ظهر وهو في السجن يتساءل عن جدوى الثورة على الشاه وفرص نجاحها، فخطب قائلًا:

"إذا وَجَّهَ أحدهم إهانةً لي، بل لَطَمَني على وجهي، أقسم بالله -تعالى- بأني لا أرضى أن يهب أحد لمواجهته والدفاع عني، لست أرضى أن أعلم أنَّ البعض يهدفون إما عمدًا أو جهلًا إلى بث الفرقة في هذا المجتمع، وإنني ومن موقعي هذا أُقَبِّل أيادي جميع المراجع من كان منهم هنا أو في النجف أو سائر البلاد.

إني أُقَبِّل أيادي جميع علماء الإسلام، إن هدفنا أسمى من هذه الأمور، إني أمد يدى إلى جميع الشعوب الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها".

بعد سبعة أشهر من إطلاق سراح الخميني، وَقَّعَ الشاه في السابع من نوفمبر ١٩٦٤م قانون الحصانة القضائية للأمريكيين في إيران (الكابيتولاسيون)، والذي منع خضوع أي أمريكي للمحاكمة في إيران مهما كانت جريمته، لَكِنَّ الخميني قرر التريث قبل صدور أي رد فعل منه.

أوكل الخميني لتلميذه رفسنجاني وعدد من علماء الحوزة مثل السيدين توليت وجعفر بهبهاني التأكد من صحة الخبر، ونص اللائحة والمستندات الملحقة به، وأعطاها لرفسنجاني الذي أوصلهما للخميني. استفز الأمر الخميني الذي قرر اختيار مناسبة عزيزة على الإيرانيين ليدلي بدلوه في هذه المهزلة.

في ذكرى ولادة السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، صَبَّ الخميني النقد على الشاه صَبًّا، وختم الخميني خطبته النارية بقوله: "لم أُعِد قلبي لتَلَقّي إنذارك، وإنما أعددته لتلقي رماحك".

وأطلق على هذا القانون قانون العار، منتقدًا خنوع بهلوي للأمريكيين؛ فضاق بهلوي ذَرْعًا بذلك؛ فأصدر السافاك بناءً على أوامر الشاه قرارًا بنفي الخميني إلى تركيا، وأوعز بهلوي إلى رئيس وزرائه الجديد حسن على منصور بالتوقيع عليه، امتثل الخميني لهذا القرار الجائر، وسافر إلى أنقرة لتجتمع عليه آلام الغربة مع آلام الظلم.